المجلد التاسع والعشرون للعام ٢٠٢٥م
حولية كلية اللغة العربية بجرجا

ثنائية العلو والانكسار في الشعر الأندلسي، (تائية) ابن اللبانة الداني أنموذجا

The dualism of height and refraction in Andalusian poetry, (Tae) Ibn al -Labana al -Dani as a model

بقلم الدكتورة

أمل بنت محسن العميري

الأستاذ بقسم الأدب، كلية اللغة العربية
جامعة أم القرى ـ المملكة العربية السعودية

الترقيم الدولى/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الأول من إصدار يونيه ٢٠٢٥م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٥/٦٩٤٠م

ثنائية العلو والانكسار في الشعر الأندلسي، (تائية) ابن اللبانة الداني أنموذجا

أمل بنت محسن العميري

قسم الأدب، كلية اللغة العربية ـ جامعة أم القرى ـ المملكة العربية السعودية..

البريد الإلكتروني : abohanenammar@gmail.com

الملخص

يحاول هذا البحث تتبع ثنائية العلو والانكسار في الشعر الأندلسي بعامة ، وعند الشاعر ابن اللبانة الداني بخاصة بالوقوف على إحدى قصائده وهي (التائية) في ندب الملك المعتمد بن عباد إبان أسره وسجنه في أغمات، وأفول نجم حكمه وضياعه من يديه، عبر نص يحكي ثنائية متضادة كان لها وقعها على الذات الشاعرة وصديقه المعتمد، ثنائية يتضح فيها (العلو والانكسار) في المكانة وفي المشاعر، حيث عبر الشاعر الأندلسي ابن اللبانة عن أسفه عما آل عليه صديقة الملك المعتمد وكأنه يتأسف لما حل بإشبيلية بشكل كامل ، فبعد أن كانت في علو ومكانة مرموقة بآل عباد الذين عرفوا بإكرامهم للعلماء بعامة والأدباء والشعراء بخاصة أصيبت بالانكسار والخذلان بعد أن قبض على ملكها وشاعرها المعتمد بن عباد وزج به في سجن أغمات بعيدا عن الأنظار ، وبعيدا عن أهله ومكانته وقصوره وعزه ومجده وشعرائه ومرتاديه من أحبته ، وسوف يكون البحث في مبحثين يسبقهما مقدمة عبر دراسة وصفية تحليلية وتمهيد، وتليهما خاتمة فيها أهم نتائج البحث ، ثم سردا لأهم المصادر والمراجع.

المبحث الأول : الشعر الأندلسي بين العلو والانكسار

المبحث الثاني : العلو والانكسار في (تائية) ابن اللبانة

الكلمات المفتاحية: ثنائية ، ابن اللبانة ، المعتمد بن عباد ، العلو ، الانكسار.

The dualism of height and refraction in Andalusian poetry, (Tae) Ibn al -Labana al -Dani as a model

Amal Bint Mohsen Al -Amiri
Department of Literature, College of Arabic Language - Umm Al -Qura University - Saudi Arabia.
Email: abohanenammar@gmail.com

Abstract

This research aims to explore the duality of elevation and downfall in Andalusian poetry in general, and specifically in the poetry of Ibn al-Labbana al-Dani, by analyzing one of his poems, Al-Ta'iyyah. The poem laments the fate of King Al-Mu'tamid ibn Abbad during his captivity and imprisonment in Aghmat, marking the decline of his rule and the loss of his kingdom. Through this poem, the poet presents a contrasting duality that profoundly affected both himself and his friend, Al-Mu'tamid. This duality is reflected in both status and emotions, highlighting the transition between elevation and downfall. Ibn al-Labbana expresses deep sorrow over his friend's tragic fate, as if mourning the decline of Seville itself. Once a city of prestige and grandeur under the rule of the Abbadid dynasty—renowned for their patronage of scholars, writers, and poets—Seville faced humiliation and despair following the capture and exile of its king and poet, Al-Mu'tamid, to the remote prison of Aghmat, far from his family, court, poets, admirers, and former glory.

The study is structured into two main sections, preceded by an introduction that employs a descriptive-analytical approach and followed by a conclusion summarizing the key findings, along with a list of the most important sources and references.

• First Section: Andalusian Poetry Between Elevation and Downfall

• Second Section: Elevation and Downfall in Ibn al-Labbana's Al-Ta'iyyah

Keywords: Duality – Ibn al-Labbana – Al-Mu'tamid ibn Abbad – Elevation – Downfall.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه جمعين ، وبعد:

فتعد الحضارة الأندلسية من أجمل الحضارات التي شهدها العرب والمسلمون في قارة أوربا، فقد تميزت وتمايزت عن كثير من المدن الأوربية في ذلك الزمان ،أضيئت بنور الإيمان والعلم المتنوع الذي ساهم في إثراء الحركة العلمية والثقافية خلدت مجدا لا ينسى لازال يذكر حتى وقتنا الحالي ،وقد تمخضت عن هذه الحضارة تراثا أدبيا عظيما ، لا يزال حتى هذا اليوم حقلا خصبا للدراسين ، وكما هو معلوم أن الحضارة العربية في الأندلس قد مرت في مراحلها بعدد من الحالات المتناقضة بين العلو والانكسار ، والقوة والضعف إلى أن زال نفوذها من تلك البقعة ، وإن كان أثرها لا زال قائما حتى يومنا هذا، ولا شك أن ذلك التناقض وتلك الثنائيات قد انعكست على الأدباء والشعراء ؛ فظهر ذلك في شعرهم وجادت قريحتهم بما يصور ثنائية العلو والانكسار، سواء الذاتي ،أو السياسي ،أو الاجتماعي، ومن أولئك الشعراء كان الشاعر ابن اللبانة الداني ،الذي تقلب بين العلو والانكسار في مراحل حياته المختلفة، فترك إرثا أدبيا زاخرا عبر فيه عن عواطفه الصادقة ومشاعره الملتهبة التي اكتوت بنيران انكساره وانكسار رفيقه الملك المعتمد بن عباد؛ فأنتج قصيدة في ندبه بعد أسره وسجنه من قبل المرابطين يحكي فيها عبر ثنائية العلو والانكسار ما كان عليه من عز ومجد وهيبة ورغد عيش إلى أن وصل إلى عكس كل ذلك عند اعتقاله وسجنه.

وقد شهدت الحركة الأدبية في عهد آل عباد في إشبيلية إبان عصر ملوك الطوائف تطورًا ملحوظًا إذ كان آل عباد يعشقون الأدب، وكان بلاطهم "مقصدًا

للشعراء من أنحاء مختلفة"[١] ولا غرابة في ذلك إذ كان أكثرهم "شعراء يحبون الشعر ويقدرونه ويؤمنون بأنه مقياس للكفاءة"[٢].

وكان المعتمد بن عباد من أكثرهم عشقا للأدب، بل من أكثر ملوك عصر ملوك الطوائف حبًا للأدب، محتفيًا به، عاشقًا للشعر، فهو "أشهر الملوك الشعراء على الإطلاق وأجزلهم شعرًا"[٣]؛ فقد وجدت الحركة الأدبية في عهده ثرية معطاءة، و متجددة، تأخذ بتلابيب الشعر نحو العلو، والسمو. إذ كان "... ممن له في العلم والأدب باع، ولذوي المعارف سوق وارتفاع، وكان يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحول البلاغة بسطًا لهم"[٤] فقد جمع المعتمد بن عباد "شعراء الأندلس أجمعين بل شعراء الغرب الإسلامي كله فإلى بلاطه لجأ شعراء إفريقية وصقلية، عندما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها، وتهددوا الباقي"[٥].

كذلك أصبح "عصره أجمل عصر، وغدا مصره أحسن مصر، تسفح فيه ديم الكرم، ويفصح لساناً سيف وقلم..."[٦]

لكن دوام الحال من المحال؛ فالتغير والتبدل من سنة الله في كونه، ولا أحد يبقى على حال واحدة، وما حدث للمعتمد كان كارثة بالنسبة إليه وإلى أحبته من

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، الطبعة الأولى (دار الشروق، ٢٠٠١م)، ص٦١.

(٢) المرجع السابق، ص٦٥.

(٣) الشعراء الملوك، جبرائيل جيور، (دار الآفاق الجديدة: بيروت، ١٩٨١م)، صفح٢٧١.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو حسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، (الدار العربية للكتاب: ليبيا، تونس، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ١/٢، ص١٣.

(٥) الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، اميليو غرسيه غومس، عربه عن الإسبانية: حسين مؤنس، (مكتبة النهضة: القاهرة ١٩٥٢م)، ص٤٧.

(٦) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، للفتح بن محمد بن عبد الله القيسي والمشهور بابن خاقان، تحقيق: حسين يوسف خربوش، الطبعة الأولى (مكتبة المنار: عمان ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، الجزء ١-٢، ص٥٢.

الشعراء "بل لم يعتقدوا أن الملك الذي كانت تتوافد عليه جموع الشعراء ينشدونه أروع الأشعار، استحال إلى رجل فقير فأواه كوخ حقير، وشتان بين إشبيليه وأغمات"(١)

لم يكن المعتمد رجلًا عاديًا؛ إنما كان ملكًا له سلطان وجاه، وعرش تحول عليه الدهر، وتكالبت عليه الظروف والأعداء، فغدا أسيرًا وسجينًا بعد أن كان حرًا طليقًا، وصار حاله من بعد عز إلى ذل وصغار ومهانة، ومن كان هذا وضعه فإن بعض الشعراء ممن كان يقصد السلاطين أمثاله من أجل العطايا والأموال أن ينفروا منه ولا يعودوا إلى ذكره؛ لأن اليد التي كانت تمدهم بالعطاء قصرت وجفت في نظرهم، غير أن هناك شعراء أوفياء ما زالوا يحتفظون برونق هذه الخصلة النبيلة فاستمروا في حبه ومودته ووصله كالشاعر ابن حمديس، والشاعر ابن اللبانة الداني(٢) مدار بحثنا هذا الذي سجل نصوصًا عديدة في رثاء المعتمد والبكاء على أفول نجمه من مملكته، فكان من أبرز هذه النصوص (تائيته) في ندبه والبكاء على سجنه، وهي قصيدة تربو على أربعين بيتًا تناول فيها الشاعر ثنائيات متعددة كان من أبرزها ثنائية العلو والانكسار، لم تتناول بالبحث – على حد علمي – من قبل وإن كانت الدراسات كثيرة حول ابن اللبانة والمعتمد وأشار فيها الباحثون إلى

---

(١) المعتمد بن عباد شقي الغرباء، آمنة بن منصور، (دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع، المجلد٥٠، العدد٣/٤، ٢٠١٤م)، ص ٢٠٠.

(٢) ابن اللبانة هو أبو بكر محمد بن عيسى الداني، من أهل مدينة دانية تردد إلى ملوك الطوائف، واستقر في بلاط المعتمد لما وجد عنده من الحفاوة والترحيب، وبقي يمدحه بقصائده إلى أن سجن المعتمد، وكان ابن اللبانة يواصله ويبكي أفول مجده. انظر ترجمته في: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٢/ ٣، ص٦٦٦، وقلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ج٣/٤، ص٧٧٦، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، (دار الفرجاني للنشر والتوزيع: القاهرة، ١٩٩٤م)، ص١٣١، والمطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرون، مراجعة: طه حسين، الطبعة الأولى(وزارة التربية والتعليم: القاهرة، ١٩٥٤م)، ص١٧٨.

هذه القصيدة غير أنهم لم يتناولوها من حيث الثنائية الضدية بين العلو والانكسار ؛ فضلا عن دراسة هذا الموضوع في الشعر الأندلسي بعامة، وهذا ما دفعني لتناولها بصورة جديدة من حيث هذه الثنائية راغبة في إضافة جديدة في الدراسات الأندلسية الشعرية ، وفي الدراسات النصية التحليلية ، ومحاولة الكشف عن أثر هذه الثنائية في الشعر الأندلسي بعامة وأثرها على نص ابن اللبانة بخاصة، مبينة قدرة الشاعر ابن اللبانة في تناول هذه الثنائية وأثرها في تجربته الشعرية، عبر بعض الأسئلة البحثية من مثل: ما أثر تغير أحوال الأندلس في إبراز ثنائية العلو والانكسار ، وما مكانة المعتمد بن عباد عند الشاعر ابن اللبانة؟ وما الذي أبرزته هذه الثنائية من معانٍ ودلالات؟ وما أثرها على الذات الشاعرة وصديقه المعتمد بن عباد؟

هذه الأسئلة وغيرها مما سيحاول البحث الإجابة عنها عبر منهج وصفي تحليلي وفي مبحثين يسبقهما مقدمة .

فكرة البحث:

يقوم البحث بتتبع ثنائية العلو والانكسار في الشعر الأندلسي ، ثم دراسة قصيدة " التائية" للشاعر ابن اللبانة الداني كنموذج لهذه الثنائية التي وصف فيها حالة الملك المعتمد بن عباد بعد سجنه من قبل المرابطين ،كيف تغيرت وتحولت من العلو للانكسار، من عز الملك إلى ذل السجن ، وأثر هذا السجن كذلك على الشاعر الذي كان يشعر بالعلو والرفعة وهو بين جنبي الملك المعتمد بن عباد ثم شعوره بالانكسار بعد أن غاب صديقه الملك في غياهب السجن.

أهمية البحث وأسباب اختيار الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في محاولة دراسة جانب مهم من جوانب الشعر الأندلسي لم يكد يدرس –على حد علمي– إلا في جانب الانكسار عبر شعراء قلة من شعراء الأندلس، أما الثنائية فلم أجد لها دراسة فيما أعلم، فضلا عن الرغبة في المساهم في إثراء الدرس الأندلسي وإضافة دراسة جديدة بدراسة (تائية) ابن اللبانة من جهة جديدة

أهداف البحث:

١-يهدف هذا البحث إلى الوقوف على تتبع ثنائية العلو والانكسار في الشعر الأندلسي بعامة ، وذكر أبرز النصوص الشعرية لبعض شعراء الأندلس الذي ظهرت لديهم هذه الثنائية.

٢-دراسة إحدى قصائد الشاعر الأندلسي ابن اللبانة الداني وهي (التائية) في ندب الملك المعتمد بن عباد كنموذج لهذه الثنائية.

٣-الكشف عن بعض الجوانب الحياتية التي سببت في وجود هذه الثنائية عبر النصوص الشعرية.

مشكلة البحث:

تتمثل إشكالية الدراسة في تساؤل رئيس وهو:

١- هل لثنائية العلو والانكسار حضور في الشعر الأندلسي؟

أسئلة فرعية:

١- من أبرز الشعراء الأندلسيين الذين حضرت لديهم ثنائية العلو والانكسار؟

٢- هل كانت الثنائية حاضرة وبقوة في نص "تائية" ابن اللبانة الداني في ندبه للملك المعتمد بن عباد؟

٣- هل وفق الشاعر ابن اللبانة في إبراز هذه الثنائية عبر قصيدته " التائية"؟

حدود البحث:

دواوين الشعراء الأندلسيين من مثل: ابن زيدون ، المعتمد بن عباد، ابن عمار الأندلسي، ابن اللبانة الداني، فضلا عن المصادر الأندلسية الكبرى من مثل: نفح الطيب من غصن أهل الأندلس الرطيب ،لابن المقري، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام الشنتريني، وقلائد العقيان ، لابن خلكان.

الدراسات السابقة:

لم أجد –على حد علمي – دراسات تتبعت هذه الثنائية بشكل خاص ولكن هناك دراسات متفرقة عن جانب الانكسار من مثل:

١- بواعث الانكسار في شعر محمد بن عمار الأندلسي، أنعام حميد ناصر، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية،مج١١،ع٢ ، عام ٢٠٢١

٢- جمالية الانكسار في الشعر الأندلسي دراسة في التقديم والتأخير نماذج مختارة ، بشير أعبيد ، مجلة أفاق علمية، مج ١٣ ، ع ٢ عام ٢٠٢١

٣- سيمياء الانكسار والرجاء في رائية ابن زيدون ، منتصر نبيه محمد صديق ،مجلة كلية دار العلوم ،ع ١٢١، عام ٢٠١٩

وكما يلحظ هذه الدراسات لا تلتقي مع عنوان بحثي إلا فيما يخص الانكسار عند بعض الشعراء ولم يشمل الثنائية التي سيهتم بها موضوعي.

خطة البحث:

المقدمة : وتشمل أهداف البحث ومشكلته والخطة التفصيلية.

–التمهيد : ويشمل على:

التعرف بأحوال الأندلس ومتقلباتها التي ساهمت في إثراء موضوع الثنائية ، فضلا عن تقلبات الذات الشاعرة بين العلو والانكسار من مصاعب الحياة

المبحث الأول : الشعر الأندلسي بين العلو والانكسار

المبحث الثاني : العلو والانكسار في (تائية) ابن اللبانة

- الخاتمة: وتشمل أهم النتائج

- المصادر والمراجع

التمهيد

أحوال الأندلس وتقلبات أوضاعهم :

مرت الأندلس بمراحل متعددة، وكل مرحلة تميزت بنقاط قوة وضعف أثرت على مجريات التاريخ فيها، وقد تناولت كتب كثر قديما وحديثا الحديث عن هذه التقلبات التي تخصصت في الأندلس تحديدا سواء التاريخية ، أو الأدبية.

ولأن موقع الأندلس الجغرافي كان بين عدد من الدولة الأوربية التي تخالفها في العقيدة الدينية و المناحي الفكرية ، فقد جر هذا الأمر عليها عددا من الحملات التي كانت تسعى لإسقاطها وتدهور أحوالها بين فينة وأخرى إلى أن سقطت تماما بعد ثمانية قرون من التقلبات بين العلو والانكسار.

وإذا استعرضنا التاريخ الأندلسي نجد أن زمن حكم الأمويين قد تميز بالعلو والأخذ بتلابيب الحضارة في كل جوانب الحياة ، فوجدنا العلماء وبداية التأليف الأندلسي لرجالات وعلماء أندلسيين ، كما وجدنا المدائن المعمارية الجميلة التي خلدها التاريخ والشعراء ، كمدينة الرصافة ، والزهراء ، والزاهرة التي تميزت كل مدينة منها بالطراز المعماري الإسلامي الأندلسي الجميل.

أما في عهد ملوك الطوائف فقد تنوعت الممالك كل مدينة تحكمها أسرة قوية ، مما أدى إلى تنوع في الثقافات والإدارات مما جعلها تكون نهضة في الفنون، والعمارة ،والتأليف، وكثرة العلماء في كافة المجالات المعرفية بالرغم من الانهزام العسكري والضعف السياسي في غالب وقت حكمهم.

وفي حكم المرابطين الذين نجحوا في إعادة توحيد أجزاء كبيرة من الأندلس وصد الممالك المسيحية لمدة من الزمن، فقد تميزوا في بداية حكمهم بالقوة العسكرية ،والحكم المركزي القوي الذي أدى إلى الاستقرار السياسي ،ومن ثم تنوع الثقافات وكثرة المؤلفات والعلماء .

وفي عهد الموحدين وإن كان هناك تراجع سياسي إلا أن مظاهر الحياة قد تعددت في عهدهم " فبدأت تقام في المدن المختلفة ،منشآت فخمة، وقصور أنيقة البنيان، ومنارة عامة، فيها تماثيل دقيقة الصنع جميلة المنظر .." [١]

أما في مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس نجد الازدهار الثقافي والعمراني رغم التهديدات العسكرية من المسيحيين المستمرة حاضرا .

وهكذا نجد أن الخيط المشترك في كل عهود الحكم الأندلسي استمرارية النشاطات المتنوعة من عمرانية ، وثقافية ، وعلمية مطردة لم تتوقف وهذا مما يعطي إشارة في علوها في هذه الجوانب . و رغم الإنجازات العظيمة في مجالات العلوم ، والثقافة ، والفنون، والعمارة، إلا أن الصراعات الداخلية والانقسامات السياسية ، بالإضافة إلى الضغوطات الخارجية من الممالك المسيحية كانت من عوامل انكسار الأندلس الذي انعكس بلا شك على الشعراء ؛فصوروا ذلك في نصوصهم كما صوروا علو شأنها من قبل.

(١) الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، د.حكمت علي الأوسى، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص ٣٠.

المبحث الأول

الشعر الأندلسي بين العلو والانكسار

لطالما كان الشعر الأندلسي مرآة تعكس الأزمات الحضارية ،والنفسية التي عاشتها الأندلس، تلك الأرض التي جمعت بين حضارة مشرقة وآفاق من الجمال، لكنها في الوقت نفسه شهدت فترات انكسار وضياع ، ومن بين الثيمات المتكررة التي نجدها في الشعر الأندلسي، برزت ثنائية العلو والانكسار كعنصر محوري يعكس حالة الاضطراب النفسي والاجتماعي التي سادت تلك الفترة.

وقد تجلت نزعة العلو في الشعر الأندلسي من خلال احتفاء الشعراء بالإنجاز الحضاري والعلمي الذي حققته الأندلس. إذ كانت الأندلس تمثل قمّة الحضارة الإسلامية في الغرب، و قد عبر الشعراء عن هذا العلو من خلال الفخر بالقصور، والحدائق، والعلوم، والفنون. كما نجده في وصف القصور الأندلسية والمجالس الأدبية من إشادة بتلك الأجواء الفخمة التي لم تشهدها أوروبا في ذلك الوقت.

والشواهد على ذلك الفخر والوصف المغرق حبا ب في البلاد وجمالها كثيرة، فهذا الشاعر ابن خفاجة يصف جمال الأندلس من خلال أنهارها وحدائقها الغناء قائلا : (١)

يا أهل أندلس لله دركم ماءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشجارُ

ما جنة الخلدِ إلا في دياركم ولو تخيرتُ هذا كنت أختارُ

وقد يظهر بعض الشعراء مكانة ممدوحيهم العالية في نصوصهم من أجل تخليد ذكراهم وإبراز مكانتهم ، فيتطرقون للعلو ، ومن ذلك قول ابن زيدون في أبي الوليد بن جهور ملك (قرطبة) في عهد ملوك الطوائف : (٢)

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، شرح د. يوسف شكري فرحات، (دار الجيل، بيروت) ، ص٩٤

(٢) ديوان ابن زيدون، دراسة وتهذيب: عبدالله سنده، ط١،(دار المعارف،بيروت–لبنان،١٤٢٦ه – ٢٠٠٥م)،ص١٠٤

للجَهْوَرِيّ أبي الوَليدِ خَلائِقٌ كالرّوْضِ أضْحَكهُ الغَمامُ الباكي
مَلِكٌ يسوسُ الدّهرِ منه مُهذّبٌ تَدْبِيرهُ للمُلْكِ خَـــــيرُ مِــلاكِ

وفي الشعر الأندلسي يظهر العلو كذلك في التعبير عــن بعــض المشــاعر الإيجابية ، كالفرح ،والسعادة ،والحب في عدد من الأغراض الشــعرية ، فالــذات الشاعرة تكون في علو مشاعرها عندما تتحدث عن مثل هذه الأحاسيس ، كما في قول سليمان بن محمد البطليوسي في ربيع حل بأرضهم فغدت وكأنها مجلس أنس يعمه البهجة والفرح : (١)

تبدتْ لنا الأرضُ مزهوة علينا ببهجــة أثوابِها
كأن أزهــــارهاَ أكؤسٌ حــوَتها أناملُ شرابِها
كأن الغصونَ لها أذرعٌ تناولها بعض أصحابِها
كأن تعانقها بالجــنوبِ تعــــانق خود لأترابِها

فهذه الأبيات ومثيلاتها تشعر فيها بعلو مشاعر الشاعر الإيجابية من الفرح والانتشاء بهذه الأرض المربعة ، وما شاهده فيها من مناظر تسر العين والقلب.

وما أجمل الشعور بالعلو عندما تنتصر الأندلس على أعــدائها المحيطــين والمتربصين بها ! وقد عبر شعراء كثر عن هذا النصر بعد جولات من الصــراع حول البلاد من الأعداء من خلال غرض المدح الذي يسقط به على الممدوحين من الخلافاء والحكام الذين اتسموا بالقوة والجهاد من أجل الإسلام والحفاظ على بلاد المسلمين في الأندلس ، ومن ذلك قول الشاعر ابن دراج القسطلي : (٢)

به رِد في جو الخلافةِ نُورهــا وقد أظلمتْ منها قصورٌ وأوطانُ

---

(١) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة الضــبي، تحقيق : لروحية عبدالرحمن السويفي،(بيروت: دار الكتب العلمية،١٤١٧هـــ-١٩٩٧م)، ص٢٩٨.

(٢) ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق : محمود علــي مكــي، (المكتــب الإســلامي ، ط٢، ١٣٩٨هـ) ، ص٨١

وأنقذ دين الله من قبضةِ العدِى وقد قاده لُلشرك ذلٌ وإذعـــانُ

فالنصر أصبح حليفهم ، والنور والعلو رمزا لهم بعد أن أوشكت أن تظلـم الديار بسبب العدو ، ولكن لبسالة الخليفة لبسوا لبس العلو، ولبس العدو الانكسار والذل ، وهذا من جمال ثنائية العلو والانكسار عند ابن دراج وعنده من الأمثلـة على ذلك كثير.

ولأن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة ، ولا على خط واحد ؛ فقد تعرضت الأندلس لعدد من التقلبات السياسية السلبية التي انعكست على المجتمـع وعلـى مشاعر الشعراء ، فشعروا بالانكسار ، وفي أحايين بالذل بعد سيطرت الأعـداء على بلادهم ،فقد شاءت الأقدار أن تتفتت الأندلس وتتفتت معها الصورة المثاليـة من الحكام والخلفاء الأقوياء ،وتنكسر بسبب ضعفهم البلاد ، فتضيع من أيـديهم ويعمها الخراب، وهذا الشاعر أبو عبدالله الفزاري ينعي هزيمة قومه بسبب فساد حاكمها الذي اشترى قرب النصارى في صورة مذلة ومخزية إذ قدم لهم الجزيـة بعد أن كان يأخذها منهم، فقال مصورا انكسارهم : (١)

الرومُ تضربُ في البلادِ وتَغنمُ والجورُ يأخذ ما بقى والمغرمُ
والمالُ يُوردُ كُلـهُ قَشتـالة والجندُ تَسقطُ والرعيةُ تسلمُ
وذوو التعينِ ليس فيهم مسلمُ إلا معينٌ في الفسادِ مسـلمُ
أَسفِي على تلك البلادِ وأهلِها اللهُ يلطفُ بالجميـعِ ويرحمُ

وصور الذل والانكسار كثيرة في الشعر الأندلسي ،فقد تعرضت لهما الأندلس منذ نهايات عصر بني أمية وبدء عصر ملوك الطوائف الذي بدأت فيه الانكسارات تتوالى حتى سقطت الأندلس كلها ، ويكفي الإشارة إلى قصيدة أبي البقاء الرندي ؛

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،لأحمد بن محمـد المقـري، تحقيـق: د. إحسـان عباس،(بيروت: دار صادر،١٤٠٨هـ-١٩٨٨م)، ٥/ ٣٥٥

لنشاهد صور الانكسار الذي تعرضت له البلاد الأندلسية من قبل النصارى ، فقد قال في بعض منها مصورا ذل وانكسار وقهر النساء الأندلسيات : (١)

وطفلةٍ مثل حُسن الشمسِ إذ طلعتْ كأنمّا هـــي ياقوتٌ ومرجانُ
يقُودوها العلجُ للمكروه مكرهةً والعيـــن بُاكيةٌ والقلب حُيرانُ
لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ إن كان في القلبِ إسلامُ وإيمانُ

هذا وقد يتعرض المرء للانكسار بسبب بعض أحواله الاجتماعية والصحية التي تفتك به فتحوله من القوة إلا الضعف ، ومن العلو إلى الانكسار، كما نجد عند الشعراء الذين ذاقوا مرارة السجن ؛ فشعروا بالانكسار والذل بعد العز والمهابة، ومن أولئك الشاعر الملك المعتمد بن عباد الذي خرج من حكمه مقيدا بالسلاسل في صورة مذلة أصابته بالكسر والحزن ،فكانت نصوصه الشعرية خير شاهد على ذلك من مثل قوله : (٢)

فيمَا مضَى كنتَ بالأعيادِ مسرورا فَساءك العيدُ في أغماتِ مأسُورا
تِرى بناتك في الأطمارِ جائعـةً يغزلن للناس ، ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم ، خاشـعةً أبصارهن، حسيراتٍ مـــكاسيرا

فالشاعر يصور مشهدا له ولبناته يظهر فيه الانكسار بوضوح (حسيرات مكاسيرا) ، فمن بعد العز والمجد والعلو أصابه وأصابهن الذل والانكسار والحزن بسبب سجنه من قبل المرابطين .

وقد ينكسر الشاعر بسبب حبه ، فبعد أن كان يعيش قصة حبه منتشيا عاليا في مشاعره يصاب بسبب أو أخر في قصته ،فيتحول ذلك العلو في العلاقة إلى الانكسار ، ويتحول الوصل للهجر، والإقبال للصد، مثل ما حدث للشاعر ابن

(١) نفح الطيب ، ٤/ ٤٨٨

(٢) ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية، جمع وتحقيق،د.رضا الحبيب السويس، (الدار التونسية للنشر ١٩٧٥م) ،ص ١٦٨

زيدون ، فقال في علاقته مع ولادة بنت المستكفي التي تحولت من الإيجاب للسلب، ومن الشموخ للانكسار القلبي : (١)

أضْحَى التّنائي بَديلاً مِنْ تَدانِيينا ونَابَ عَنْ طِيبَ لُقْيانا تَجَافِينَا
أَلا! وقَد حَانَ صُبحُ البَينِ صَبّحنَا حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا للحَينِ نَاعينَا
مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسينا بانتزاحِهِمُ حُزْنًا معَ الدهرِ لا يَبْلى ويُبْلِينَا

فالحزن ثوب من أثواب الانكسار يصاب به القلب ؛ فتصدح أغاني الشجن من قلب الشاعر المعاني والمكلوم بسبب البعد وقطع الوصال.

ومن أجل لقمة العيش وضيق ذات اليد قد يلجأ الشاعر للمدح من أجل الحصول على نوال الممدوح ، فيتحدث عن ذله وانكساره لعل الممدوح يرق له ويعطيه مبتغاه، وذلك مثلما فعل الشاعر ابن دراج القسطلي عندما قال في قصيدته المدحية للمنصور بن أبي عامر مشيرا لحالة الذل والانكسار الذي هو فيه، ومتمنينا أن يحصل على ما يحيي الآمال في نفسه وهو في غربته: (٢)

هل أنَتَ مُدرك آمالي فمحييها ومُبدِلِي في الورَى مِنْ ذِلتي تِيها

هذا وتعددت أسباب الانكسار في شعر شعراء الأندلس غير التي ذكرتا سابقا، فهناك عامل الزمن الذي يشعر الشعراء بالضعف والانكسار عندما يتقدمون في العمر ، كما وجدنا ذلك بكثرة عند الشاعرين ابن حمديس الصقلي، وابن خفاجة ،وهناك عامل الفقد ، سواء فقد الأحبة أو الوطن أو الصحة ،فهذا ابن حمديس قد اجتمع عليه الفقد والغربة والهم فقال منكسرا: (٣)

أتَاني بدارِ النّوى نَعِيهُ فياروعة السمعِ بالداهية
فاحمّر ما ابيض من عبرتي وبيّض لمتي الداجية

(١) ديوان ابن زيدون ، ص ١١
(٢) ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق : محمود علي مكي، (المكتب الإسلامي ، ط٢، ١٣٩٨هـ)، ص
(٣) ديوان ابن حمديس، صححه وقدمه د. إحسان عباس،(دار صادر– بيروت) ، ص٢٨٤

بدارِ اغترابٍ كأنّ الحياةَ لـــــذكر الغريبِ بها ناسيه

وبذلك (اجتمعت عليه الغربة وفقد الولد فابيض شعره من الأمــر الجلــل واشتعل الرأس شيبا) . [١]

كما أن حالة الخوف التي قد تناب بعضهم أثر تهديد حاكم لهم قــد يصــيب المرء الشعور بالانكسار كما حصل مع الشاعر محمد بن عمار الأندلسي ؛ فعبــر في شعره (عن ذلك الخوف أمام سلطة المعتمد وجبروته وهو من أعرف الناس به، فهو لا حول له ولا قوة أمام ولي نعمته، بعد أن فشلت خطته في الاســتيلاء على مرسية ، وتسبب باعتقال الرشيد ابن المعتمد، فتردد في العودة إليه وخــاف مواجهة المعتمد فكتب إليه يلتمس منه العفو بشعور المنكسر الخائب) [٢] أبياته التالية : [٣]

أأَسلكُ قصـــــدًا أم أعوجُ عن الركبِ فَقد صِرتُ من أمْري على مَركبٍ صَعبِ
وأَصْبحتُ لا أدري أفي البعدِ راحتِــي فأجعلهُ حَظي، أمْ الحـــــــظُ في القربِ
إذا أنَفذتُ في أمْرِي مَشيتُ مع الهوى وإن أتعقبه نَكصـــــــــتُ على عقبِــي

وهكذا نجد أن أسباب الشعر بالعلو والانكسار في الشعر الأندلســي جــاءت متعددة ومعبرة عن مشاعر الشعراء ، فغدت هذه الثنائية مرتبطة بأحوال الشعراء المتغيرة بين العلو والانكسار أو العكس مما أثرت الســاحة الأدبيــة الأندلســية وكشفت عن مشاعر شعرائها بجرس شعري يفيض بوحا وشعورا بما حولهم .

(١) ثنائية الشيب والشباب عند ابن حمديس الصقلي ، دراسة وصــفية تحليليــة،أمل محســن العميري،مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق،العدد :٣١ (١٤٣٢هــ-٢٠١١) ، ص١٢١٧

(٢) بواعث الانكسار في شعر محمد بن عمار الأندلسي، انعام حميد ناصر، هادي طالب محسن العجيلي ،مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، (٢٠٢١م)،المجلــد:١١، العــدد: ٢ ، ص ٢٢٣م

(٣) شعر محمد بن عمار الأندلسي، ط١،مطبعة شمس ، المغرب (٢٠٠١م)، ص ٢٨

المبحث الثاني

العلو والانكسار في تائية ابن اللبانة:

توطئة:

ثمة مواقف يسقط فيها الإنسان من علٍ، يسقط من بعد علو ومكانة مرموقة وبارزة، كأن يعتلي كرسيًا ملكيًا، أو سلطويًا، ثم يتجرد من كل ذلك ويسقط منكسرًا من مكانه، هو انكسار معنوي لكنه يسبب شرخًا في الذات ، جرح لا يمكن له أن يندمل مع الزمن ، وانكسار لا يمكن جبره أو تعويضه، فكيف لو ظل على هذه الحالة حتى وفاته؟

وما من شك أن الإنسان في هذه اللحظات الحرجة لا يحتاج إلا لصديق صدوق يقف بجواره، ويخفف عنه حدة وطأة ما أصابه، يأخذ بيده إلى بعض ساعات الأنس، والذكريات الماضية الجميلة أيام العلو والاعتلاء، ويذكره بتحول الأحوال على كل من كانوا قبله وأن هذا ديدن الحياة، فلا شيء يبقى كما كان.

هذا ما كان عليه موقف الشاعر الأندلسي ابن اللبانة الداني مع صديقه الملك المعتمد الذي تبدلت عليه الأحوال من سلطان إلى سجين عاجز في (أغمات)، من سلطان يملأ أسماع الدنيا، ويأتيه أفواج الشعراء من كل مكان، يستظلون تحت ملكه وينالون إعجابه ومن عطاياه الخير الكثير، إلى غريب طريد من دياره ، مسلوب السلطة، وإن كانت المحنة التي مرّ بها المعتمد قد كشفت عن بعض الأقنعة من الشعراء المزيفين الذين نالوا من كرمه وعندما حلّ به ما حلّ أنكروه وأداروا نفحات شعرهم إلى غيره بعيدًا عنه؛ فإن ابن اللبانة ومن مثله من الأوفياء ظلوا على حبهم وصدقهم وحرفهم الشعري الصادق فيه. كل ذلك حبًا وتقديرًا وتفاعلًا مع الآخر الذي طالما مدّ لهم يد السحابة الهطول صديقه المعتمد، واستحق أن يكون شاعر الوفاء له، مسجلا بذلك الصنيع قصة وفاء من رجل نبيل، صان العشرة، وحفظ المودة، ذكر صديقه في شعره كثيرًا وهو لا يمتلك له غير ناصية الشعر ورقة الحرف فكان "نبيل المأخذ، وهو فيه حسن المهيع، جمع بين سهولة اللفظ

ورشاقتها، وجودة المعاني ولطافتها، كان منقطعًا إلى المعتمد، معدودًا في جملة شعرائه"[١].

لقد تمتع ابن اللبانة بعلاقة وطيدة مع المعتمد "تجاوزت طبيعة علاقة شاعر بملك، فقدت أواصر صداقة ومحبة لا يدنسها شوائب المادة والمصالح الشخصية، وأصبحت علاقتهما أشبه بعلاقة المتنبي بسيف الدولة الحمداني"[٢] لذا نجد حضورًا قويًا بارزًا للمعتمد في شعر ابن اللبانة ينم عن محبة حقيقية، وإعجاب بشخصه وكريم طبعه، فقد "كان المعتمد –رحمه الله– يميزه بالتقريب، ويستغرب ما يأتي به من النادر الغريب، ويوليه إنعامًا وإحسانًا، ويريه الزمان كله آذاراً ونيساناً."[٣]

ومما قاله في المعتمد عند دخوله لورقة[٤]:

تخللت حتى غابة الأسد الورد ... وأنزلت حتى ساكن الأبلق الفرد
وجردت دون الدين سيفك فانثنى ... من النصر في حليٍ، من الدم في غمد
بصير بأطراف المؤتّلة الشبا ... سميع بآذان المسوّمة الجرد
لقد ضمّ أمر الملك حتى كأنه ... نطاقٌ بخصْر أو سوارُ على زند

وقال فيه أيضًا[٥]:

أنت علمتني السيادة حتى ... ناهضت همتي الكواكب قدرا
ربحتُ صفقةً، أزيل بُرودا ... عن أديمي بها، وألبس فخرا
وكفاني كلامك الرطب نيلا ... كيف ألقي درّا وأطلب تبرا

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٣١.

(٢) ديوان ابن اللبانة الداني مجموع شعره، جمع وتحقيق: محمد مجيد السعيد، (دار الراية للنشر والتوزيع: الأردن، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م)، ص١٠.

(٣) قلائد العقيان،٤/٣، ص ٧٧٦

(٤) ديوان ابن اللبانة، ص٥١.

(٥) المصدر السابق، ص٦٤.

إلى غير ذلك من النصوص التي تدور حول شخص المعتمد بن عباد والإعجاب به، وبالمقابل كان المعتمد كريمًا مع ابن اللبانة؛ فضلًا عن بقية الشعراء الذين قصدوه؛ لذلك استحق مثل هذه النصوص المدحية، ونسمع لابن اللبانة يقول في استحقاق آل عباد لهذه المدائح بقوله: "بماذا أصفهم، وأي منقبة من الجلالة أوليهم، فهم القوم الذين تجلّ مناقبهم عن العدّ والإحصاء، ولا يتعرض لها بالاستيفاء، والاستقصاء ملوك زُينت بهم الدنيا وتحلّت، وترقت حيث شاءت وحلت."(١)

وما أن حلّ ما حلّ بالملك المعتمد من سوء الحال وتقلب المآل من أسر وسجن وجدنا ابن اللبانة من أوائل القادمين عليه، الزائرين له، لم تثنه بعد المسافات، ولا سوء الأحوال؛ فالمحب الصادق يتلهف ويسعى للقاء بمن أحب بصدق وإخلاص ،وقد ذكر المراكشي أن ابن اللبانة قد ورد على المعتمد في أغمات "ملتزمًا عهد الوفاء قاضيًا ما يجب عليه من شكر النعمى، فسرّ المعتمد بوروده، فلما أزمع ابن اللبانة على السفر، استنفد المعتمد وسعه ووجه إليه بعشرين مثقالًا وثوبين وكتب إليه معها:

إليك النزر من كف الأسير فإن تكن عين الشكور
ثقيل ما يذوب له حياءً وإن غدرته حالات الفقير! "(٢)

إلا أن ابن اللبانة امتنع عن قبول الهدية "وصرفه بجملته إليه، وكتب مجيبًا له عن شعره:

سقطت من الوفاء على خبير فذرني والذي لك في ضميري
تركتُ هواك وهو شقيق ديني لئن شُقّت برودي عن غدور."(٣)

وظلت المراجعات الشعرية بينهما كل يؤكد على محبته وتقديره للآخر.

---

(١) نفح الطيب ٤، ص٢٤١.
(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٣٧.
(٣) المصدر السابق، ص١٣٨.

هذا وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مكانة المعتمد في نفس ابن اللبانة؛ فضلًا عن إحساس الشاعر بأن له مكانته العالية والسامقة عند المعتمد.

ولأن الحب متبادل بينهما وجدنا ابن اللبانة يتأثر كثيرًا لما أصاب رفيقه المعتمد إثر النكبة التي حلت عليه فـ "يشير ابن اللبانة إلى المقارنة الكبيرة بين حاله التي كانت أيام ملك المعتمد بن عباد، وبين حاله بعد سقوط دولته وزوال ملكه، الأمر الذي دفعه إلى المقابلة مرات عديدة بين الحالين، ويتذكر كيف كان كل شيء على عهد المعتمد جميلًا مشرقًا، وكيف كان يحيا في كنفه في عز وتقدير، وكيف فقد كل ذلك وتحول إلى نقيضه في الفترة التي عاشها بعد أسر المعتمد وضياع ملكه"[١] ومن ذلك قوله في بكائياته وحزنه على آل عباد[٢]:

وأين معتمدُ، نعمى يقسمها ... مرعىً وماءً لزوار وروّاد
وأين يوضح لي هدي الرشيد ضحى ... أجلو به في ظلام الغي إرشادي
وأين لي كنف المعتد منزلةً ... على احتفال من النعمى وإعداد
مكارم ومعال كنت بينهما ... كأني بين روضات وأطواد
لقاكم الله خيرًا، أنكم نفرُ ... لم تعرفوا غير فعل الخير من عاد
إن كان بعدكم في العيش من أرب ... فإن في غُصصٍ عيشي وأنكاد

هذا "ومن شدة حزن ابن اللبانة على المعتمد وما حّل به جعل كل شيء يشاركه الحزن والأسى عليه"[٣]، فقال[٤]:

بكاكَ الحيا والريحُ شقّت جيوبَها ... عليكَ وناحَ الرعدُ باسمكَ مُعْلِما
ومزّقَ ثوبُ البرق واكتستِ الدجى ... حدادًا وقامت أنجُم الليلِ مأتما

---

(١) شعر ابن اللبانة الداني في الوفاء للمعتمد بن عباد، دراسة موضوعية، رغدة علي الزبون، مجلة العلوم الإنسانية، مجلد٤٢، العدد٢، ٢٠١٥م، ص٤١٠.
(٢) ديوان ابن اللبانة، ص٦٢.
(٣) شعر ابن اللبانة في الوفاء للمعتمد ابن عباد، ص٤١٢.
(٤) ديوان ابن اللبانة، ص١٢٦.

وحار ابنك الإصباح وجدا فما اهتدى وغار أخوك البحر غيظًا فما طمى
وما حَلَّ بدرُ التمّ بعدك دارةً ولا أظهرت شمسُ الظهيرة مَبْسمًا

كل ذلك وما عداه من نصوص أخرى كلها تشير إلى مكانة المعتمد العالية عند ابن اللبانة، وإن أصابها الانكسار إلى أنها ظلت في ارتفاع وعلو في قلب شاعرنا ابن اللبانة وإن تأثر بها وتفاعل معها وأصابه ما أصاب صديقه الملك من انكسار بعد علو ، فأخذت ذاته الشاعرة تظهر هذا التضاد وتلك الثنائية في نصوصه التي بكى وندب فيها المعتمد ورحيله عن مملكته وسلطانه.

النص[١]:

لكل شيء من الأشياء ميقاتُ وللمنى من منائيهن غاياتُ
والدهرُ في صبغة الحرباء مغمسٌ ألوانُ حالاته فيها استحالات
ونحنُ من لُعبِ الشطرنج في يده وربما قُمِرَت بالبيدق الشاة[٢]
انفض يديك من الدنيا وساكنها فالأرضُ قد أقفرت والناسُ قد ماتوا
وقل لِعالَمها السفلي قد كتمتْ سريرةَ العالَم العلويِّ أغمات
طوت مِظلّتها لا بل مذلّتها من لم تزل فوقه للعزّ رايات
من كان بين الندى والبأس أنصُلُهُ هنديةٌ، وعطاياه هُنديات[٣]
رماه من حيث لم تستْره سابغةٌ دهرٌ مصيباتُه نبْلٌ مُصيبات
وكان ملءَ عيانِ العين تُبصرُه وللأمانيِّ في مرآه مرآة
أنكرتُ إلا التواآت القيودِ به وكيف تُنكرُ في الرّوضات حيّات؟

---

(١) ديوان ابن اللبانة، ص ٣٦.

(٢) قمرت: قمرت الرجل فقمرته قمرًا: إذا فاخرته فغلبته. انظر: لسان العرب، ابن منظور، تصحيح: أمين عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، الطبعة الثالثة (دار إحياء التراث، مؤسسة التاريخ العربي: بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، مادة (قمر).

(٣) هنيدات: مائة من الإبل. انظر: اللسان، مادة (هند).

غَلطِتُ بين هَماييِن عُقِدنَ له ... وبيّنها فإذا الأنواعُ أشْتات[1]

وقلتُ هنّ دؤاباتٌ فلمْ عُكستْ ... من رأسه نحو رجليْه الذّؤابات؟

حسبتُها من قَناهُ أو أعنتهِ ... إذا بها لِثقافِ المجدِ آلات

دَرَوْهُ ليثًا فخافوا منه عاديةً ... عذرتُهم فلعدوى الليثِ عادات

منه المهاباتُ في الأرواح آخذةٌ ... وإن تكُن أخذتْ منه المهابات

لو كان يُفرَجُ عنه بعضَ آونةٍ ... قامت بدعوتِه حتى الجمادات

بحرٌ محيطٌ عهدناه تجيءُ له ... كنقطةِ الدّارةِ السبعُ المُحيطات

وبدرُ سبعٍ وسبعٌ تستنيرُ به ... السبعُ الأقاليم والسبعُ السماواتُ

له وإن كان أخفاه السِّرارُ سنًا ... مثل الصباحِ به تُجلى الدُّجنات[2]

هفا على آل عبادٍ فإنهم ... أهلةٌ مالها في الأفق هالات

أقاموا على الامن حيث البغيُّ مُسغَبةً ... حولي مضاجعهم والغِلُّ مِحواةٌ

تمسكت بعُرى اللذاتِ ذاتُهم ... يا بئس ما جنتِ اللذاتُ والذاتُ

راحَ الحيا وغدا منهم بمنزلةٍ ... كانت لنا بُكَرٌ فيها ورَوْحات

أرضٌ كأن على أقطارها سُرُجا ... قد أوقدتهُنَّ في الأذهان أنْبات

وفوقَ شاطئ واديها رياضُ ربى ... قد ظللتها من الأنشامِ دوحات[3]

كأنَّ واديها سلكٌ بلبَّتها ... وغايةُ الحسنِ أسلاكٌ ولبات

نهر شربتُ بعبريه على صُور ... كانت لها فيَّ قبلَ الراحِ سَوْرات[4]

---

(١) همايين: الهمايين جمع هيمان، وهي المنطقة والتكة، وهي موضع شد الإزار. انظر: اللسان، مادة (همي).

(٢) السرار: آخر ليلة في الشهر يحفى فيها القمر. انظر: اللسان، مادة (سرر).

(٣) الأنشام: النشيم: شجر جبلي تتخذ منه القسي، وهو من عتق العيدان. انظر: اللسان، مادة (نشم).

(٤) عبرية: شاطئه وناحيته. انظر: اللسان، مادة (عبر). سورات: سورة الخمر: حميّا دبيبها في شاربها. انظر: اللسان، مادة (سور).

وكنــــتُ أورقُ فـــي أيكاتـــه ورَقًـــا تهوى ولي من رقيق الشعر أصواتُ
وكم جريــتُ بشــطّيْ ضــفتيه إلـــى محاســـنٍ للهـــوى فـــيهنّ وقفـــات
وربمـــا كنـــتُ أســـمو للخلـــيج بـــه وفي الخليجِ لأهـــل الـــراحِ راحـــات
وبالعروســـاتِ لا جفّـــتْ منابتُهـــا مـــن النعـــيم عروســـاتٌ جنيـــات
معاهـــدٌ ليـــتَ أنـــي قبـــل فُرقتهـــا قد متُ والتاركوهـــا ليـــتهم مـــاتوا
فجعـــت منهـــا بـــأخوانٍ ذوي ثقـــةٍ فاتوا...وللدهر في الأخـــوان آفـــات
وافيت في آخـــر الصـــحراء طائفـــةً لغـــاتهم فـــي كتـــابِ الله مُلغـــاة
بمغرب العدوة القصوى دجـــا أملـــي فهـــل لـــه بـــديار الشـــرق مشـــكاة
رغدٌ من العيش مالي أرتقبـــه ولـــي عند ابن أغلبَ أكنـــافٌ بســـيطات[1]
إن لم يكن عنده كـــوني فـــلا ســـعةٌ للرزق عندي ولا للأنـــسِ ســـاعات
هـــو المُـــرادُ ولكـــن دونَـــه خُلـــجٌ رخـــاوةٌ عنـــدها بـــيضٌ مُعـــلات
وإن تكن رجس مـــن فـــوق مَذهبـــه فليس تغرِب فـــي وجهـــي الملمـــات
هناكَ آوى من النعمـــى إلـــى كنـــفٍ فيـــه ظِـــلالٌ وأمـــواهُ وجنـــات
بين الحصارِ وبين المُرتضـــى عُمـــرٌ ذاك الحصارُ من المَحذورِ مَنْجـــاةُ[2]
هل يذكرُ المسجدُ المعمـــورُ شَـــرْجبهُ أو العهودُ علـــى الـــذكرى قـــديمات
عندي رسالاتُ شوق عنـــده فعســـى مـــع الريـــاح تُوافيـــه رســـالاتُ

(١) ابن أغلب: مولى لمجاهد العامري، كان يتولى شؤون الجزائر الشرقية في عهد علي بـن مجاهد، وكان قد ولي حكمها منذ سنة٤٢٨هـ، وكان جنديًا وبحارًا مجربًـا، تـوفي سـنة ٤٤٢هـ. انظر: تاريخ الأندلس، دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطـي، محمـد عنان، الطبعة الثانية (مكتبة الخانجي: القاهرة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، ص٢٠٢.

(٢) المرتضى: هو عبد الله المرتضى ولاه علي بن مجاهد مكان ابن الأغلب بعد وفاته، ولمـا سقطت دانية في يد ابن هود وانقضت دولة علي، أعلن المرتضى استقلاله بحكـم الجزائـر واستمر في حكمها أميرًا مستقلًا حتى وفاته سنة٤٨٦هـ. انظر: تـاريخ الأنـدلس، دولـة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ص٢٠٢.

صارت مياسمهم والسحب من حَـزنٍ لهـــا دمـــوعٌ عليهـــا مُســـتهلاتُ

قال ابن اللبانة نص التائية نادبًا المعتمد بن عباد إثر أسره وسجنه بأغمـــات، وراعه "لما رآه وحلقات الكبل قد عضت بساقيه عض الأسود، والتوت عليها التواء الأساور السود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعًا إلا ممتزجًا بدم، بعـــدما عهده فوق جند وسرير، ووسط جنة وحرير، تخفق عليه الألويـــة، وتشـــرق منـــه الأندية، وتكف الأمطار من راحته، وتشرف الأقدار لحلول ساحته، ويرتاع الـــدهر من أوامره ونواهيه، ويقصر النسر أن يقاربه أو يضاهيه، ندبه بكل مقـــال يلهـــب الأكباد..."[١]

والنص يقع في أربع وأربعين بيتًا يتشكل – فيما رأيت – من ستة مقـــاطع تتنازع بين العلو والانكسار مشكلة لوحة ترسم في ظلالها مشـــاعر العلـــو تـــارة والانكسار تارات أخرى، بلغة تتضح فيها الثنائية الضدية تلك الثنائية التي إذا أخذ بها الشاعر فإنها تكشف لنا "عن وعي الشاعر تجاه قضايا وموضـــوعات تخـــص مجتمعه أو ذاته ..، وعن موهبة شعرية مبدعة استطاعت أن توظف هذه الألفاظ ، وتعيد تشكيلها وفق نسق شعري يكاد يكون متفردًا"[٢]، فالثنائيات الضـــدية تشـــكل "فضاء مائزًا للنص؛ إذ تجتمع جملة علاقات زمانية ومكانية، وفعلية بأزمنة مختلفة، فتلتقي هذه العلاقات على أكثر من محمور ، تلتقي وتتصادم وتتقـــاطع وتتـــوازى، فتغني النص، وتعدد إمكانيات الدلالة فيه."[٣]

وفي (تائية) ابن اللبانة تظهر الثنائية الضدية (العلو والانكسار) كما يظهر فيها مكانة المعتمد عند ابن اللبانة؛ فضلًا عن أزمة الشاعر النفسية تجاه مـــا حـــل

---

(١) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، الجزء١، ص١٠٣.

(٢) جماليات التضاد في النسق الشعري عند الجواهري، أنور سعيد جواد، (مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة: العراق، ٢٠١١م)، ص٣٥٠.

(٣) الثنائية الضدية دراسات في الشعر العربي القديم، ســـمر الـــدبوب، (منشـــورات الهيئـــة السورية: دمشق،٢٠٠٩م)، ص٧.

بصديقه الملك؛ لذا جاء النص ممتلئًا بالحسرة والوجع، فجاء -كما رأيته- على هذه المقاط الستة، كل مقطع يأخذ برقاب المقاطع التي تسبقه أو تليه؛ وهذه المقاطع هي:

١. التحول والتغير .
٢. وصف السجن وأثره على الشاعر وصديقه .
٣. تعداد مناقب المعتمد وعلو كعبه .
٤. التحسر والبكاء على آل عباد وابنهم المعتمد .
٥. مكانة الشاعر عند المعتمد بن عباد وآله .
٦. الختام .

١. <u>التحول والتغير (انكسار)</u>:

ويقع في الأبيات من (٤-١)

لكل شـــيء مـــن الأشـــياء ميقـــاتُ وللمنـــى مـــن منـــائيهن غايـــاتُ
والدهرُ في صبغة الحرباء مغمـــسٌ ألـــوانُ حالاتـــه فيهـــا اســـتحالات
ونحنُ من لُعبِ الشطرنج فـــي يـــده وربمـــا قُمِـــرَت بالبيـــدق الشـــاة
انفض يديك مـــن الـــدنيا وســـاكنها فالأرضُ قد أقفرت والناسُ قد ماتوا

يسرد ابن اللبانة في هذا المقطع الشعري حكاية الدنيا وتقلب أحوالها في لغة سهلة، ميسرة لكنها مؤثرة، فـــ (لكل شيء من الأشياء ميقات) وهذه حقيقة واقعيـــة فكل شيء في هذه الحياة له موعد ووقت محدد ثم يزول ويتحول؛ لذا العاقل من لم يأمن لها ولا يركن إليها، فـــ (الدهر في صبغة الحرباء مغمس)، ينقلـــب ويتلـــون كتقلب وتلون الحرباء بحسب ما تقع عليه، وكما أنه من المستحيل بقاء الحرباء على لون واحدة فكذلك الدهر من المستحيل أن يبقى على حالة واحدة، فنحن فـــي يـــده كلعبة الشطرنج يحركنا ويبدل أمكنتنا كما يحلو له وذلك بعد أمر الله تعالى، فتغلبنا بعد أن كنا نحن الغالبين عليها فـــ (ربما قمرت بالبيدق الشاة) ، وإن كانت الغلبـــة

دوما لتقلبات الدهر فسطوته هي البارزة وغلبته هي الواضحة، فما يفعله الدهر مشهدًا ملموسًا ، وما يعتور الحياة من حدثانه واضح ومشهود.

كل هذه المعاني الحكمية والقواعد التقريرية يسردها ابن اللبانة كمقدمة لمدخل نصه وكأنه بها يحاول تقديم العزاء لصديقه المعتمد (ولذاته الشاعرة) في أن ما أصابه لم يكن فيه يد إنما هي تقلبات الحياة وتحول الدهر الذي استعمل معه عددًا من التشبيهات ؛ ليوصل المعنى ويقربه للذهن الذي لا يكاد يصدق ما حل بصديقه الملك الكريم. وهذه التشبيهات وإن كان فيها ما فيها من بشاعة إلا أن تدل على عمق تأمل الشاعر وتنوع تجاربه الحياتية التي جعلته يستخلص منها هذه التشبيهات البشعة والموجعة ، فلم يعد يأمن الدنيا وساكنيها ؛ لذلك طلب نفض اليدين منها ومن سكانها (فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا) كما يرى ذلك .

٢.وصف السجن وأثره على الشاعر وصديقه (انكسار).

ويقع في الأبيات (١٣-٥)

وقل لِعالَمها السفلي قد كتمتْ ... سريرةَ العالَم العلويِّ أغمات

طوت مِظلّتها لا بل مذلّتها ... من لم تزل فوقه للعزّ رايات

من كان بين الندى والبأس أنصُلُهُ ... هنديةٌ، وعطاياه هُنديات

رماه من حيث لم تسْتره سابغةٌ ... دهرٌ مصيباتُه نبْلٌ مُصيبات

وكان ملءَ عيانِ العين تُبصرُه ... وللأمانيِّ في مرآه مرآة

هنا ينتقل الشاعر ابن اللبانة بصوته الشعري إلى السجن ذلك المكان الذي ضم صديقه الملك المعتمد، ذلك المكان المعادي الذي أسقطه من عليائه وجعله منكسرًا، مخذولًا في ظلمة ووحشة.

أبيات تظهر لنا المفارقة بين الحالين والوضعين بين العلو والانكسار، وكيف كان المعتمد ملء العين والنظر يبصره كل من عرفه أو حتى سمع به، فكم كانت للأماني عند بابه جسور ممتدة يسير عليها كل من كانت له أمنية في قربه وعطاياه، لكن للأسف قد أصابته النكبة ورماه الدهر فأسقطه من عل.

كان معروفًا بنهر كرمه المتدفق، وحبه للشعر والشعراء وإكرامه لهم، فعاشوا في بلاطه وعهده أجمل مما كانوا يتصورون، بيد أن نبال الدهر كانت قاسية عليه، بل مميتة له، إذ أوجعته وأسقطته في بئر الانكسار، وبين العلو والانكسار تقف الذات في مقاومة وجهاد، لكن حتمًا ستتوجع وتتألم كثيرًا وهي التي اعتادت على المكانة السامقة، وعلى الأمر والنهي في مكانها وبين أهلها وعرشها.

أنكرتُ إلا التواآت القيودِ به وكيف تُنكرُ في الرّوضات حيّات؟
غَلطِتُ بين هَماييِن عُقِدنَ له وبيّنها فإذا الأنواعُ أشْتات
وقلتُ هنّ دؤاباتٌ فلم عُكستْ من رأسه نحو رجليْه الذّؤابات؟
حسبتُها من قَناهُ أو أعنتهِ إذا بها لِثقافِ المجدِ آلات

يكمل الشاعر حالة الانكسار التي يعاني منها الملك المعتمد وهو مكبل في سجنه، فأخذ يلقي الضوء على انكساره ويصور لنا كيف رآه في صورة شجية مؤلمة، صورة لا تليق بمثل هذا الملك الكريم النبيل المعطاء، حيّات تحاصره، وتمسك برجليه، وفي هذا تشبيه غريب من ابن اللبانة وصورة تثير التعجب، فالمعتمد في سجنه تمسك به القيود وتلتوي على رجليه فكيف يجمع الشاعر بين الحيات والروضات والمعتمد في قوله: (وكيف تنكر في الروضات حيات؟) كيف يجمع بين العلو والانكسار في مكان يشعر فيه المرء بالخذلان والانكسار؟

إنها قدرة الشاعر ابن اللبانة الشعرية، فهو "المديد الباع، الفريد الطباع، الذي ملك المحاسن مقادًا، وغدا له البديع منقادًا."(١)، فقد رأى في المعتمد صورة رياضه وأمكنته الممتلئة بالخير والشر معًا، فهو روضة مليئة بالعطاء والخضرة الرامزة بالكرم ورغد العيش، بينما هو هكذا عقدت الحيات أنفاسها عليه كرهًا وحقدًا وحسدًا على ما آل إليه من مكانة عظيمة في نفوس محبيه، فأرادت أن ترديه قتيلًا، ذليلًا، كسيرًا، فكان ما أرادت من هذه الالتواءات حول رجليه لتمنعه من الحركة

(١) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ٣/٤، ص٧٧٦.

وتقيده فلا يمكنه النجاة منها. ولا شك أن المناسبة قائمة بين الروضات والحيات ، فالرياض ذات الشجر الكثيف والمتطاولة بأغصانها وأوراقها تحضر فيها الحيات وتمشي بين ساحتها وهذا من عدم اكتمال الجمال أن منغصات الحياة حاضرة، لذلك هذا أمر ليس بمستغرب (وكيف تنكر في الروضات حيات؟).

وفي محاولة من الشاعر لإنكار الذل والانكسار عن مشهد المعتمد في سجنه وتحت قيوده نجده يرى أن القيود قد وصلت إلى منطقة الإزار وعقدت عليه فظنها بعضًا من (قناه أو أعنته) فهي (لثقاف المجد آلات)، لذلك ليس بمستغرب وجودها عليه، فهو ملك يقاتل ويحارب ويحمي سلطانه، فمن غير المستغرب وجود مثل هذه الآلات الحربية عليه.

لكن الحقيقة غير ذلك وإن حاول الشاعر تصريفها أو الابتعاد عنها، أو تجميلها وتزينيها، فما هذه الذؤابات التي التفت حول رجليه إلا قيود السجن والسجناء، إنها لم تكن أدوات العزة والعلو كما تراءت للشاعر؛ بل هي آلات ذل وانكسار للشاعر وصديقه الملك الأسير.

وأرى أن ابن اللبانة شاعر محب لصديقه الملك لا يريد أن يصوره بشكل سلبي، أو يشوه منظره الذي ألفه وهو في عزة وعلو، فحاول إعطاء صورة مشرقة عنه وحوّر الصورة الحقيقة وكأنه يرفض تلك الصورة الواقعية التي صار عليها صديقه ، ومن هنا ينطلق الشاعر إلى المشهد الثالث أو المقطع الثالث من النص، فيأخذ في الحديث عن المعتمد ومناقبه في أبيات تظهر العلو والشموخ لهذا الملك الصديق.

٣. تعداد مناقب المعتمد وعلو كعبه (العلو).

وتقع في الأبيات (١٩-١٤)

دَرَوْهُ ليثًا فخافوا منه عاديةً ... عذرتُهم فلعدوى الليثِ عادات

منه المهاباتُ في الأرواح آخذةٌ ... وإن تكُن أخذتْ منه المهابات

لو كان يُفرَجُ عنه بعضَ آونةٍ ... قامت بدعوتِه حتى الجمادات

بحرٌ محـيطٌ عهـدناه تجـيءُ لـه كنقطةِ الـدّارةِ السـبعُ المُحيطـات
وبدرُ سـبعٍ وسـبعٌ تسـتنيرُ بـه السبعُ الأقاليم والسـبعُ السـماواتُ
له وإن كان أخفـاه السِّـرارُ سـنًا مثل الصباحِ بـه تُجلـى الـدُّجناتُ

في هذا المقطع يصور لنا الشاعر صديقه الملك بصور البطولـة والبسـالة وكأنه عاد إلى وعيه وتيقن من رؤية صديقه بين جدران السجن؛ فـأراد أن يعيـد الصورة المشرقة الوضاءة له ولمكانته العالية والسامية، فيعلل كثرة تلك القيود بأنها ماهي إلا خوفًا منه ومن قوته، (دروه ليثًا فخافوا منه عادية)، فيعـذرهم الشـاعر (فلعدوى الليث عادات) وهنا موطن القوة والعزة للمعتمد التي ستقع على مسـمعه موقعًا إيجابيًا عندما يسمعها فيطمئن أن صحبه مازالوا يرونه ذلك الملـك القـوي المقدام.

ويمضي ابن اللبانة في تصوير قوة المعتمد وبأنه لو سمح له بأن يفرج عنـه لرأى الأعداء منه العجب العجاب (لو كان يفرج عنه بعض آونة) فما عسـى أن يُرى منه ؟ (قامت بدعوته حتى الجمادات) هذا رد الشاعر ونظرته وإيمانه بقـدرة صديقه المسجون، فالبطل يتسبب بالموت لخصومه ويرمي بهم في قـاع الهزيمـة بكثرة أحبابه من حوله، فهو شخص له هيبته في الأرواح (له المهابات بـالأرواح آخذة) علو، (وإن تكن أخذت منه المهابات) انكسار.

هو بحر محيط من العطاء والكرم يغرف منه القـادمون والمتجهـون إلـى بلاطه، بحر ممتد، شاسع، كنقطة الدارة التي تجتمع عندها السبع المحيطات كل ذلك من كرمه وسعة عطائه.

رجل حسن السيرة، طيب الخلق ، كل من عرفه أحبه وتودد إليه، كل يريـد أن يخلصه مما هو فيه (حتى الجمادات) وفي هذه كناية عن علو مكانة المعتمد في قلب كل عرفه، فمن شدة حب الناس له انتقل هذا الحب حتى للجمادات فشـعرت وهي في الأصل لا تشعر، وما كثرة هذه القيود عليه إلا خوفًا من شجاعته ومـن حضوره بين الناس، فـ "النكبة التي حلت بصديقه إنما كان سببها خوف خصـومه

منه بعد أن تأكدوا من شجاعته وقوة بأسه وهيبته، حين رأوه ليثًا في حالة توثب، خافوا منه عادية إضافة إلى ان المهابة التي له في النفوس لا تزال باقية؛ لذا ضيقوا عليه القيود، ولم يفكروا في الافراج عنه؛ لأنهم متأكدون أنهم لو فعلوا ذلك لقامت بدعوته حتى الجمادات."[١]

ومهما حاول الأعداء إخفاء نوره إلا أنه (مثل الصباح به تجلى الدجنات)، يظل مضيئًا، منيرًا كالصباح الذي يجلي الظلمات من محامده وأفعاله الطيبة وذكره الحسن.

٤. التحسر والبكاء على آل عباد وابنهم المعتمد (انكسار).

وتقع في الأبيات (٢٦-٢٠)

هفا على آل عبادٍ فإنهم ... أهلةٌ مالها في الأفق هالات

أقاموا على الامن حيث البغيُّ مُسغَبةً ... حولي مضاجعهم والغِلُّ مِحواةٌ

تمسكت بعُرى اللذاتِ ذاتُهم ... يا بئس ما جنتِ اللذاتُ والذاتُ

راحَ الحيا وغدا منهم بمنزلةٍ ... كانت لنا بُكَرٌ فيها ورَوْحات

أرضٌ كأن على أقطارها سُرُجا ... قد أوقدتهُنَّ في الأذهان أنْبات

وفوقَ شاطئ واديها رياضُ ربى ... قد ظللتها من الأنشامِ دوحات

كأنَّ واديها سلكٌ بلبَّتها ... وغايةُ الحسنِ أسلاكٌ ولبات

ولأن للمعتمد مكانته الخاصة عند الشاعر ابن اللبانة كان حري به أن يبكيه ويبكي ما آل إليه؛ فأخذ يتحسر عليه وعلى عهده الماضي في صورة تقطر حزنًا ووجعًا وانكسارًا، انكسار يمتد من الملك المعتمد إلى الذات الشاعرة المصاحبة لهذا الانكسار ؛ بل إلى آل عباد جميعًا، وما المعتمد إلا جزء من تلك الكوكبة المشرقة في حياة (إشبيلية) ، فحق له أن يتحسر ابن اللبانة عليهم ويبكي أفول

---

(١) شعر ابن اللبانة الداني، عواطف محمد الصواف، رسالة ماجستير، (جامعة أم القرى، ١٤١٥هـ/١٩٩٧م)، ص١٣٩.

نجمهم وانكسار آخر ملوكهم صديقه، وما تحسر الشاعر على الكل إلا تحسرًا على الجزء الأكبر المعتمد بن عباد.

فالشاعر يتلهف عليهم لأنهم (أهلة مالها في الأفق هالات) أهلة في سماء مملكتهم (إشبيلية) لا يشبههم أحد من الملوك في المنزلة والعلو، قاموا على أمن البلاد حين كان الأعداء من حولهم يتربصون بهم ويسعون إلى سقوطهم، يترقبون أفولهم، والغل متشعب في نفوسهم، يسعون إلى إذلالهم وانكسارهم، فكان لهم ما تمنوا ولكن من ساعدهم في هذا الانكسار يا ترى؟ إن الشاعر يجيب على ذلك ويدق على مسمار الوجع ولكنها الحقيقة المرة التي يجب أن يعترف بها مهما كانت مؤلمة:

تمسكت بعُرى اللذاتِ ذاتُهم يا بئس ما جنتِ اللذاتُ والذاتُ

إنه الركون إلى الدعة والملذات، نفوسهم تعلقت بالحياة الدنيا ومتعها ولذاتها الفانية، و (يا بئس ماجنت اللذات والذات) ، "لقد كان المعتمد رهينة قلب ظمآن لا يشبع على طول الشرب والعب من الشهوات والمباهج، ولهذا لم يكن يرى بأسًا في إضاعة أموره ومهماته، وتعطيلها تلبية وإرواء لهذا القلب المتعطش."(١)

لقد ضيع اللهو ملكهم، وساهم في محو مكانتهم من مملكتهم، وتجريدهم من عرشهم، فأسقطهم من علٍ، وانكسروا مكانة وشموخًا، وتحولت أحوالهم من الإيجاب إلى السلب ومن العلو إلى الانكسار.

ولعل في هذا البيت نصيحة مبطنة من الشاعر لكل من أخذته الملذات بعيدًا، وأسرف فيها إسرافًا مبالغًا فيه إن لم ينتبه، ويتوقف عن ذلك الغلو والإغراق في ملهياته وملذاته؛ فإنه لا محالة مصيبه ما أصاب آل عباد وبالأخص صديقه المعتمد، سوف تسقطه الحياة من علوها وسيذوق المرارة والانكسار كما ذاقها صديقه

---

(١) المعتمد بن عباد دراسة نفسية، محمد خيط، رسالة ماجستير، (جامعة الأخوة منتوري، كلية الآداب والعلوم الانسانية، الجزائر، ٢٠٠٥م)، ص١٦.

المسجون، هذا ويحمل البيت تعليلا منطقيا لما آل إليه حالهم فلولا الانغماس في الملذات والسعي وراء متع الذات لما كان ما كان من السقوط والانكسار.

راحَ الحيا وغدا منهم بمنزلةٍ كانت لنا بُكَرٌ فيها وروْحات

غادرهم المطر رمز الحياة والخصب والنماء، غادرهم وترك أرضهم دمارًا وخرابًا من بعدهم وقد كانت لهم وللشاعر (بكر فيها وروحات) أرض منيرة (كأن على أقطارها سُرجًا) هذه السرج (قد أوقدتهن بالأذهان أنبات).

فوق شاطئ واديها من الرياض والربا التي ظللتها أشجار الأنشام فكانت فيها دوحات من الخضرة والروائح الشذية.

وكأن واديها (سلك بلبتها) سلك أضفى حسنًا وجمالًا على جيد أرضهم (إشبيلية) (وغاية الحسن أسلاك ولبّات).

أوصاف وصور متلاحقة أتى بها ابن اللبانة تصور علو آل عباد إبان مجدهم وحكمهم ل(إشبيلية)، أوصاف وصور يأتي بها الشاعر متحسرًا ومتألمًا على فقدانها، وما هذه الصور المتلاحقة إلا صورة متطابقة لصديقه المعتمد بن عباد، فهو كالرياض نضرة وجمالًا، وكالأودية والمياه العذبة لمن قصده، وكالوادي في سلك آل عباد، فازدانوا به في جيد حكمهم وكان في غاية الحسن والجمال بطيب أصله، وكرم منبعه.

كل هذا الجمال الذي لو سمعه المعتمد وهو في حكمه لأجزل لابن اللبانة العطاء، ولكن الأبيات هنا بقدر مافيها من الجمال بقدرما فيها من انكسار وصل إليه آل عباد وابنهم المعتمد فلا شيء يعادل تغير الحال على الإنسان الميسور، ذو المكانة العالية، وخاصة الملوك، إلى إنسان متعثر، مسجون ، أصابه الذل والفقر بعد العزة والغنى، إنسان أصابه الضياع والخوف، بعد الاستقرار والأمان.

٥. مكانة الشاعر عند المعتمد بن عباد وآله (علو).

وتقع في الأبيات (٤٣-٢٧).

نهر شربتُ بعبريه على صُور ... كانت لها فيَّ قبلَ الراحِ سَوْرات
وكنتُ أورقُ في أيكاته ورَقًا ... تهوى ولي من رقيق الشعر أصواتُ
وكم جريتُ بشطّيْ ضفتيه إلى ... محاسنٍ للهوى فيهنّ وقفات
وربما كنتُ أسمو للخليج به ... وفي الخليجِ لأهل الراحِ راحات
وبالعروساتِ لا جفّتْ منابتُها ... من النعيم عروساتٌ جنيات
معاهدٌ ليتَ أني قبل فُرقتها ... قد متُ والتاركوها ليتهم ماتوا
فجعت منها بأخوانٍ ذوي ثقةٍ ... فاتوا...وللدهر في الأخوان آفات
وافيت في آخر الصحراء طائفةً ... لغاتهم في كتابِ الله مُلغاة
بمغرب العدوة القصوى دجا أملي ... فهل له بديار الشرق مشكاة
رغدٌ من العيش مالي أرتقبه ولي ... عند ابن أغلبَ أكنافٌ بسيطات
إن لم يكن عنده كوني فلا سعةٌ ... للرزق عندي ولا للأنسِ ساعات
هو المُرادُ ولكن دونَه خُلجٌ ... رخاوةٌ عندها بيضٌ مُعلات
وإن تكن رجس من فوق مَذهبه ... فليس تغرِب في وجهي الملمات
هناكَ آوى من النعمى إلى كنفٍ ... فيه ظِلالٌ وأمواهُ وجنات
بين الحصارِ وبين المُرتضى عُمرٌ ... ذاك الحصارُ من المَحذورِ مَنْجاةُ
هل يذكرُ المسجدُ المعمورُ شَرْجبهُ ... أو العهودُ على الذكرى قديمات
عندي رسالاتُ شوقٍ عنده فعسى ... مع الرياح تُوافيه رسالاتُ

في هذا المقطع الشعري الطويل ينقلنا ابن اللبانة إلى وضعه إبان عهد آل عباد، ومكانته الاجتماعية والأدبية بينهم، وكل الذي كان يشعر به من علو كعب، وفخامة تقدير من قبلهم، أيام كان يشرب فيها من شاطئ نهرهم العذب عطاءهم،

ومن حلو مائهم الذي شبهه بالخمرة في اللذة والانتشاء (كانت لها في قبل الراح سورات)، كل ذلك ليخبرنا بجمال عهدهم، وتورّق فعلهم عليه وعلى من تقرب إليهم، كان كالورّق في أيكتهم يترنم لهم وفي حبهم، وله من رقيق الشعر فيهم أصوات قصائد مترنمة .

شعر يظهر محاسنهم وينقل أفعالهم الكريمة، ويصور حالهم من رفعة وعزة، حروف شعر يستحقونها بكل ما فيها من ثناء وتمجيد فلطالما عاش في عهدهم وبين كنفهم في عز ورفاهية، وكم كانت له وقفات في نصوصه عند أعتابهم وأمجادهم، جرى بشط شعره وطربه في محاسنهم وأمكنتهم التي ما بين الخلجان، والعروسات الجنان ذات النعيم المقيم، معاهد مشرقة قضى فيها لحظاته السعيدة بل أجمل لحظاته المورقة، فهذه الأبيات ماهي إلا إشارة إلى "قوة وعظمة وسعة وعموم خير وشمول في سائر أرجاء تلك المملكة المترامية الأطراف، ذات الرياض المزهرة، والأقطار المسرجة، والدوحات الغناء، والوادي المعشب بلبته وأسلاكه ونهره وأيكاته التي أورق شاعرنا فيها متغنيًا بأصوات القريض وأنفاسه المختلفة في مواقف اللهو والهوى والجمال؛ لأن تلك المعاهد كانت مرابع النعيم وسعادة يسمو إليها ويتلهف على العودة لها كل من كانت له فيها بكر وروحات."(١)

جملة من لغة الذكريات اتكأ عليها الشاعر؛ ليشير إلى ما كان عليه من نعيم وسعادة في ظل آل عباد، ذكريات تنبت في قلبه السعادة وتلج به في بحر الشعر دروبًا طربة.

كل هذه الذكريات التي استحضرها الشاعر ماهي إلا رغبة منه في احتضان انكساره وانكسار رفيقه، فبعض الذكريات قد تنبت الفرح، وتسقي الروح بماء الحياة لحياة كانت فيها رايات العز والعلو عالية، ساطعة سامقة بينهم. لكن الواقع مر ومرارته جعلت شاعرنا يتمنى لو أنه مات قبل فراقه لتلك المعاهد، بل ليت التاركين

(١) شعر ابن اللبانة الداني، ص١٣٩.

لها من أهلها آل عباد قد ماتوا أيضًا قبل مغادرتها، وفي هذا حزن شديد على ما آل إليه المعتمد وأهله بعد مغادرتهم ومفارقتهم لإشبيلية.

فقد ذاق من رغد العيش بينهم ما لا يمكن وصفه ولا يمكن تعويضه أينما ذهب وولى عند ابن أغلب أو غيره، فأكنافهم مهما كانت مبسوطة له إلا أنها لا تعادل انبساط أكناف آل عباد وصديقه المعتمد فهو المراد، وهو المتبقي (ولكن دونه خلج رخاوة عندها (بيض معلات).

فهو الجنة بالنسبة إليه ، وهو المأوى من النعمى (فيه ظلال وأمواه وجنات)، فكيف يستبدله بغيره، وكيف لأحدهم أن يأخذ مكانه في قلبه وفي صوته الشعري؟ ذكريات تجر بعضها بعضًا تسحب الشاعر إلى حقل من السعادة والألم في آن واحد، سعادة وألم لأنها لم تعد كما كانت تلك العهود والمعاهد ،ذكريات يحاول فيها استنطاق الطبيعة من ظلال وأمواه وجنات، ومساجد وقصور(هل يذكر المسجد المعمور شرجبه أم العهود على الذكرى قديمات) استفهام يخرج به إلى التمني؛ فالشاعر يتمنى من ذلك المسجد المعمور أن يتذكر قصر الشراجيب، قصر المعتمد بن عباد، وكأنه يوحي بأن المسجد مكان للعبادة ولعل من فيه أن يدعو لملكهم المعتمد بن عباد في العودة من جديد، وإن كان يخشى أن يكون المسجد ويقصد من فيه من الناس أن يكونوا قد نسوا ملكهم ولهتهم الدنيا فقال: (أم العهود على الذكرى قديمات).

استفهام أراه استنكاريًا، وكأنه يستنكر على من تنعموا بالظلال الوارفة في عهد آل عباد وملكهم المعتمد أنهم قد تناسوه وعدوه ذكرى قديمة لا يمكن أن تعود، والشاعر يصر على العودة ويحلم بها ويتمناها لكن (لكل شيء من الاشياء ميقات) كما ذكر ذلك في بداية نصه، فلكل علو انكسار عندما لا يحافظ على هذا العلو ويلهى عنه بملذات الحياة ومتعها.

لكن يبقى قلب المحب ينبض ويقطر أسى ووفاء لمحبوبه وأخيه الذي وقف معه وأمده بسيل من خيراته.

يأمل ويتأمل من ذلك المسجد أن يكون متذكرًا ومحتفظًا بذكرى قصر الشراجيب/ رمز العلو، رمز الخير والنبل، رمز العطاء فللشاعر رسالات شوق عنده يريد أن يرسلها مع الرياح علها توافيه وتصله وإن لم يكن بها ذلك الشخص القريب إلى نفسه (صديقه المعتمد)، ولعل في اختياره للرياح دونًا عن الأشخاص فيه رغبة منه أن تصل رسالة لكل جوانب القصر تصافحه برسالات الشوق المكنون في نفسه، فالشوق كبير وعظيم لا يمكن لإنسان أن يحمله وينشره في ذلك القصر إلا من اتسم بالشمول والسرعة فما كان إلا أن وقع اختياره على الرياح لتوصل تلك الأشواق لقصر الحبيب والرفيق.

٦. الختام (انكسار).

ويقع في البيت الأخير.

صارت مياسمهم والسحب من لها دموعٌ عليها مُستهلاتُ

هكذا كانت نهاية النص تتشابه مع بدايته الذي بدأ بالانكسار خُتم أيضًا بالانكسار وكأن قدر المعتمد أن يحوطه الانكسار من كل اتجاه، وأن يتحمل رفيقه الشاعر ابن اللبانة ذلك الانكسار الذي شعر به؛ كما شعرت به مياسهم وسحبهم فحزنت وكان (لها دموع عليها مستهلات) بل أكاد أرى أن الانكسار في هذا النص ليس فقط تعبيرا عن انكسار المعتمد وحده بل هو انكسار للذات الشاعرة؛ فضلًا عن علوها وعلو المعتمد إبان حكمه.

فكما كان الملك المعتمد عاليًا في مكانه وإبان حكمه، يزهو ويتغنى بجذور مجده، يأمر وينهى في بلاطه، يعتلي العرش وحب من حوله ينثر نصوصًا وأدبًا، يقف فيه شامخاً بين طلابه من الشعراء المداحين، والمحبين، نجد الشاعر ابن اللبانة كان كذلك يشعر بالفخر والعلو في أحضان صديقه، يشعر بصوته الشعري وهو يعلو عن بعض الشعراء عنده، ويلمح مكانته السامقة عند رفيقه الملك، وكما تغيرت الحال عند رفيقه، فخسر ملكه، وانتهى عهده، وانتابه الانكسار والذل بعد العزة والكرامة، فقد تعرض للانكسار نفسه شاعره ابن اللبانة وانتقل إليه فشعر به

وشعرنا به في نصوصه التي بكى وندب فيها المعتمد، وبين انكسار الذات الشاعرة وعلوها يقف المعتمد مقاومًا شامخًا، وإن بكى واستبكى أفول نجمه، وضياع ملكه في نصوصه كذلك.

وثمة ثيمة أسلوبية تكاد تتكرر عند ابن اللبانة في نصه فهو لا يفتأ من تكرارها بين الفينة والأخرى ، بل إنها تشكل إحدى تقنياته التعبيرية ، وهي استخدامه لبعض ألوان البديع وبالأخص الجناس والطباق والمقابلة ،موائما بين مجموعة من الكلمات التي تهدف إلى استقصاء المعنى وتوكيده ،فالنص في مجمله قائم عليها ؛ فضلا عن بعض ألوان البديع الأخرى ، ففي البيت الخامس نراه يطابق ويقابل بين مكانين هما السفلي والعلوي ، ليظهر لنا فعل السجن (أغمات) بصديقه المعتمد في محاولة لكتمت سريرته العالية:

وقل لِعالَمها السفلي قد كتمتْ سريرةَ العالَم العلويِّ أغمات

وفي البيت السادس نراه يطابق بين العزة والذلة ، فالسجن قد طوى بذلته من (لم تزل فوقه للعز رايات)، وفي البيت كذلك جناس ناقص بين (مظلتها ومذلتها) أحدث جرسا موسيقيا موجعا للمفارقة بين الحالين اللذين وقع فيهما المعتمد .

وفي البيت التاسع عشر:

له وإن كان أخفاه السِّرارُ سنًا مثل الصباحِ به تُجلى الدُّجناتُ

طباق بين (أخفاه السرار و تجلى الدجنات) فمهما حاول الأعداء إخفاء ضوء المعتمد فإن موعده الصباح تجلى فيه الدجنات وتظهر أفعاله ومكانته الحقيقية.

والجناس من الألوان الأسلوبية الشائعة في نص ابن اللبانة فنكاد نراه في كل بيت من نصه مثل قوله: (وللمنى – منائيهن)، و(هندية – هنيدات)، و(مصيباته – مصيبات)، و(مرآه – مرآة)، و(محيط – المحيطات)، و(متُّ – ماتوا) إلى غير ذلك من الجناس الذي انتشر في نصه و كان له أثره الفاعل من رفع الوتيرة الموسيقية وتوطيد المعنى المراد.

كما نجد ظاهرة أسلوبية واضحة في النص تكررت أكثر من مرة وكان لها أثرها وهي فنية " رد الأعجاز على الصدور"

الذي يعد لونا من ألوان الإيقاع الموسيقي يجمع بين الجناس والتكرار فيحث نغما صوتيا يهب للقصيدة جمالا موسيقيا ،من مثل ما وجدنا في البيت الخامس عشر (منه المهابات..) ، والبيت السابع عشر (بحر محيط ..) ، والبيت الثاني والعشرين ((تمسكت بعرى اللذات ..) ، والبيت الثالث والعشرين(راح الحيا..)، والبيت السادس والعشرين (كأن واديها ...) ، والبيت الثالث والأربعين (عندي رسالات ..) ، وما هذا التكرار والاهتمام الواضح من الشاعر في هذه التقنية الفنية إلا رغبة منه في إعطاء نصه أكثر جمالية وروحا من الدفقة الموسيقية التي تساعد في الشعور بالنص ، و تزيد من وحدته الفنية إذ يربط بين شطري البيت فيصبح صدره وعجزه كلا لا ينفصل ، ونغما واحدا متصلا.

ولاشك أن لاختيار الشاعر قافيته بحرف الروي التاء المضمومة التي يسبقها مد أثر في النص ودلالاتها فقد ساعدت التاء المربوطة "الشاعر على تصوير النهايات التي ذكرها في مقدمة نصه، ففيها يظهر صوت الموت الخفي (ميقات، غايات، استحالات، ماتوا، مصيبات، حيات، أشتات...إلخ) جمل من المفردات تشي بفداحة الخطب وعظم المصاب الذي حل بالشاعر وبرفيقه الملك الأسير وبالمكان (إشبيلية)."[1]

(١) المكان في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، أمل العميري، الطبعة الأولى (مؤسسة الانتشار العربي: بيروت، لبنان ٢٠١٢م)، صفحة٢١٩.

الخاتمة:

مع نهاية البحث الموسوم بـــ (ثنائية العلو والانكسار في تائية ابن اللبانة في ندب المعتمد بن عباد)، خرج البحث إلى جملة من النتائج التي من أهمها:

١. عاش الشاعر في كنف آل عباد في علو ومجد ومكانة ملموسة ورعاية من صديقه الملك المعتمد بن عباد.

٢. ذاق الشاعر مرارة الانكسار بعد فقده لصديقه المعتمد وقد لمسنا ذلك الانكسار فـــي (تائيته) التي حكى فيها انكسار المعتمد ولكنها في الحقيقة ماهي إلا انكسار للـــذات الشاعرة لابن اللبانة.

٣. بدأ نص (التائية) لابن اللبانة بروح الاستسلام لتغيرات الزمان وتحولاتـــه التـــي أصابت المعتمد بن عباد وأصابته كذلك، فكان الانكسار ناجم عن ذلـــك التحـــول، وختم نصه كذلك بالانكسار والشعور به من خلال إدرار دمعه وسكبه لها. وبـــين الانكسارين كان العلو شامخًا، سامقًا في النص.

٤. تمكن الشاعر من نصه – مع طول ذلك النص – مـــن خـــلال ســـرد الأحـــداث والمشاعر، فأخذنا متدرجًا بنا من انكسار إلى انكسار ثم علو ثم انكسار أخير حيث النهاية التي كسرت فيه القلوب والحياة .

٥. ظهرت بعض الثيمات الأسلوبية في (تائية) ابن اللبانة وكان لها أثرها الفاعل في النص من الناحيتين الموسيقية وتوكيد المعنى المراد ، كالجناس والطباق والمقابلة.

٦. استخدام حرف الروي التاء المضمومة كان له أثره الواضح والفاعل في الـــنص، فالتاء المضمومة ضمت انكسار ذاته وانكسار رفيقه المعتمد الذي لا يرغب في أن يظهر ذلك الانكسار وحق له فهو ملك وإن خبأه السجن بين جدرانه حتى تـــوارى بالموت.

هذا ويوصي البحث بالالتفات للثنائيات الضدية في الشعر الأندلسي بشكل عام وعند ابن اللبانة بشكل خاص ، كما يوصي بتتبع الأطر الأسلوبية عند ابن اللبانـــة فلديه ثيمات أسلوبية جديرة بالعناية ولها أثرها في نصوصه الشعرية .

المصادر والمراجع:

١- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة الضبي، تحقيق : لروحية عبدالرحمن السويفي،(بيروت: دار الكتب العلمية،١٤١٧هـ-١٩٩٧م)

٢- بواعث الانكسار في شعر محمد بن عمار الأندلسي، انعام حميد ناصر، هادي طالب محسن العجيلي ،مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، (٢٠٢١م)

٣- تاريخ الأندلس، دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، محمد عنان، الطبعة الثانية (مكتبة الخانجي: القاهرة، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م).

٤- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، إحسان عباس، الطبعة الأولى (دار الشروق، ٢٠٠١م).

٥- الثنائية الضدية دراسات في الشعر العربي القديم، سمر الدبوب، (منشورات الهيئة السورية: دمشق،٢٠٠٩م).

٦- ثنائية الشيب والشباب عند ابن حمديس الصقلي، دراسة وصفية تحليلية ،د. أمل محسن العميري ،(حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق ٢٠١١م)

٧- جماليات التضاد في النسق الشعري عند الجواهري، أنور سعيد جواد، (مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة: العراق، ٢٠١١م).

٨- ديوان ابن اللبانة الداني مجموع شعره، جمع وتحقيق: محمد مجيد السعيد، (دار الراية للنشر والتوزيع: الأردن، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م).

٩- ديوان ابن حمديس، صححه وقدمه د. إحسان عباس،(دار صادر- بيروت)

١٠- ديوان ابن خفاجة ، شرح د. يوسف شكري فرحات، (دار الجيل، بيروت)

١١- ديوان ابن زيدون، دراسة وتهذيب: عبدالله سنده، ط١،(دار المعارف،بيروت-٤ لبنان،١٤٢٦ه - ٢٠٠٥م)

١٢- ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق : محمود علي مكي، (المكتب الإسلامي ، ط٢، ١٣٩٨هـ)

١٣- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو حسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، (الدار العربية للكتاب: ليبيا، تونس، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)

١٤- الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، اميليو غرسيه غومس، عربه عن الإسبانية: حسين مؤنس، (مكتبة النهضة: القاهرة ١٩٥٢م).
١٥- شعر محمد بن عمار الأندلسي، ط١،مطبعة شمس ، المغرب (٢٠٠١م)
١٦- شعر ابن اللبانة الداني، عواطف محمد الصواف، رسالة ماجستير، (جامعة أم القرى، ١٤١٥هـ/١٩٩٧م).
١٧- شعر ابن اللبانة الداني في الوفاء للمعتمد بن عباد، دراسة موضوعية، رغدة علي الزبون، (مجلة العلوم الإنسانية، مجلد٤٢، العدد٢، ٢٠١٥م).
١٨- الشعراء الملوك، جبرائيل جيور، (دار الآفاق الجديدة: بيروت، ١٩٨١م).
١٩- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، للفتح بن محمد بن عبد الله القيسي والمشهور بابن خاقان، تحقيق: حسين يوسف خربوش، الطبعة الأولى (مكتبة المنار: عمان ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
٢٠- لسان العرب، ابن منظور، تصحيح: أمين عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، الطبعة الثالثة (دار إحياء التراث، مؤسسة التاريخ العربي: بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).
٢١- المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرون، مراجعة: طه حسين، الطبعة الأولى (وزارة التربية والتعليم: القاهرة، ١٩٥٤م).
٢٢- المعتمد بن عباد دراسة نفسية، محمد خيط، رسالة ماجستير، (جامعة الأخوة منتوري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، ٢٠٠٥م).
٢٣- المعتمد بن عباد شقي الغرباء، آمنة بن منصور، (دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع، المجلد٥٠، العدد٣/٤، ٢٠١٤).
٢٤- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، (دار الفرجاني للنشر والتوزيع: القاهرة، ١٩٩٤م).
٢٥- المكان في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، أمل العميري، الطبعة الأولى (مؤسسة الانتشار العربي: بيروت، لبنان ٢٠١٢م).
٢٦- نفح الطيب من غصن أهل الأندلس الرطيب، أحمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، (دار صادر: ١٩٩٧م).

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	ملخص	١٠٧
٢-	Abstract	١٠٨
٣-	المقدمة	١٠٩
٤-	التمهيد أحوال الأندلس وتقلبات أوضاعهم :	١١٥
٥-	المبحث الأول الشعر الأندلسي بين العلو والانكسار	١١٧
٦-	المبحث الثاني العلو والانكسار في تائية ابن اللبانة:	١٢٣
٧-	الخاتمة:	١٤٥
٨-	المصادر والمراجع:	١٤٦
٩-	فهرس الموضوعات	١٤٨